

فلسفة الصيام في شهر الرحمن



فرض الصيام على المسلمين، في شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة، ومنذ ذلك التاريخ حتى نهاية الأبد يبدأون في أداء هذه الفريضة، بنفوس مطمئنة، وقلوب تهفو إلى الرحمة والغفران، لا تهدم لدغة الحرمان، ولا قسوة الحر وعصف الشتاء، عن أداء هذا الواجب الديني. فما هو الهدف من هذه الفريضة العامة، التي لا يعفى عنها غير المريض والمسافر ومن لا يطيق الصيام؟. وقبل ذلك يجدر بنا أن نستوفي تعريفاً بـرمضان ومعرفة رسالته ولا نغلق أذهاننا عن فلسفة هذا الشهر العظيم، الذي أطراه القرآن، واحتفى به الرسول والأئمة والمسلمون. فـشهر الصيام قبل كل شيء احتفال عام مستمر بنزول القرآن، والقرآن ليس كتاباً سماوياً فحسب، وإنما هو الإسلام، كل الإسلام، ومصدر النبوة ودستور المسلمين.

وإذا كان الإسلام منهج البشرية جمعاء إلى يوم القيامة، وأوسع الأديان وأكملها، فما أجدد المسلمين أن يحتفوا بميلاد هذا الشرع العظيم، متمثلاً في نزول القرآن. وبعد ذلك فرمضان شهر التبليغ، لأن الإنسان الذي تتحكم فيه الغرائز والعواطف من الداخل، وتجاذبه المغريات من الخارج، لا بد له أن يسايرها لولا الوازع الديني الذي يكمن انفلاته. وحيث إن الموائد المادية الخلافة المنتشرة في كل مكان، لتعجب وتغري وتذهل، فالإنسان الذي أطلق سراحه ليرعى في هذه المطاعم الشهية أحد عشر شهراً يشعر بتضاؤل القوى المعنوية أمام بركات المادة. والعبادات اليومية، رغم نتائجها الفعّالة، لا تشعر الإنسان بأن القوى المعنوية مسيطرة على القوى المادية، فلا بد من استخدام وسيلة أخرى لإعادة الإنسان إلى مكانته الوسطى، بين عناصر الروح والمادة، فشرع الإسلام شهر الصيام، لإنجاز هذه الرسالة الكبرى، ومكافحة التطرف المادي الذي يتزايد في غضون السنة. فـشهر رمضان، زيادة على أنه موسم الخطب والمحاضرات، والصلوات والأدعية والأذكار، يعتمد في مهمته على التبليغ المباشر، وهو الصيام. ذلك أن الإنسان الذي أضرب عن المطاعم شهراً كاملاً لأمر واحد من أوامر الله، رغم إلحاح الضرورة عليه، يتركز في كيانه: أنه وجميع الظواهر المادية خاضعة للقوى المعنوية، فلا تطغى المادة على الدين، ولا تجرف عوامل الخير، وإنما تبقى محدودة بتوجيه الإسلام، وإرادته الطاهرة. على أن شهر رمضان شهر الاستجمام والتفكير، فالإنسان بما ركز فيه من غريزة التطور، ويكره الدأب في وظيفة معينة، ومنهجه واحد للعيش والحياة. كما أن تفكير الإنسان ينبو عن محاسبة وتنبه وتخطيط المستقبل وهو منغمس في

معالجة المشاكل ومقاساة الآلام التي يفرضها عليه عمله الرتيب، ويعجز عن النبوغ والإبداع في زحمة الوقائع، ومرتكب المناقضات. فلا بدّ له في كلّ سنة من شهر يعتزل فيه معترك الحياة، ويفرغ لنفسه وتفكيره، فينظر في حياته السابقة، ويصحح ما فيها من أخطاء ويضع منهاج مستقبله في جوٍّ عامر بالتروي والأناة. ولهذه الحقيقة يحذ الإسلام أن ينسلخ الفرد في هذا الشهر من المادة والحياة، وينصرف إلى الاعتكاف وعبادة الله، فيتفرغ للتلقي والتجاوب دواعي الدين والضمير، حتى يكون على بينة لتلبية بواعث الإلهام، ولا يندفع إلى حياته آماداً طويلة بلا تفكير وتخطيط كالراكب الذي ينطلق بوجي الساعة من دون استعراض ماضيه، والتنبؤ لمستقبله. كلّ ذلك لتكون حياة الإنسان في هذا الشهر غير حياته في سائر الشهور، فيجد تطور الحياة وينال فرصة الاستجمام، وينعم بالمجال الواسع لوضع منهاج المستقبل، بترو وأناة. هذا بعض ما يرجع إلى فقه رمضان.

وأما فلسفة الصيام، في هذا الشهر المبارك، فتلك ما تحلقت حولها الأسئلة، وتناطحت عليه الآراء، فهناك من يظن: أنّ الصوم وسائر العبادات طقوس شكلية ومراسيم فارغة، فرضت على الناس، لمجرد التكليف والتعجيز، دون أن تحمل رسالة، أو تهدف إلى مقصد نبيل. وهناك آخرون يحسبون: أنّ الصوم فرض على المسلمين، لتعذيب النفس، وارهاقها بالشدة والقسوة، لتنسلخ عن المادة، وتتسم بنكران الذات، كما كان قدماء الهندو يكلفون أنفسهم رياضات جسمية مرهقة معتقدين أنّ السعادة الكاملة في العذاب والرهق. بينما الواقع: أنّ الصوم ليس من الطقوس الجوفاء، ولا من الرياضات المرهقة، وإنما هو تربية للعقل والنفس والروح، ومران للإرادة.